التفسير الأثري المقارن سورة الكافرون انموذجاً

Comparative Archaeological Interpretation: Surah Al-Kafirun as a Model

أ.م.د. تحسين عبد الرحمن لفتة علي [1]

Asst. Prof. Tahseen Abdulrahman Lafta Ali, (PhD)

الخُلاصة

تناول البحث موضوع التفسير الأثري المقارن، وبدأناه بتعريف هذا الصنف من التفسير، وبيّنا أولياته من وجود تفاسير أثرية غير قليلة وردت عن أهل السنة والشيعة لكنّها غير مقارنة ولا جامعة. ولأجل هذا نشط بعض المؤلفين والعلماء في القرن الأخير لتدوين تفسير مقارن يضمّ المأثور من التفسير عن أكثر من طائفة، وكانت أهمّ نتائج هذا النشاط هو تفسير لدى أهل السنة وآخر لدى الشيعة، فكلاهما مقارنان، لكن المقارنة في تفسير أهل السنة هو التفسير بالمأثور لدى الطوائف السنية فقط وغمض النظر فيها عن الشيعة بطوائفها، والتفسير المقارن الشيعي تجاوز هذا النقص الكبير الذي يعاني منه التفسير السني إلاّ أنّه لا يخلو من اشكالات فنية وعلمية أشرنا إليها. ثمّ أوردنا أنموذجاً للتفسير المقارن بالمأثور المتوخى، وهو تفسير سورة الكافرون، وفي النهاية أوردنا نتائج البحث مع بعض الاقتراحات. بأمل التوفيق في إيصال فكرة هكذا تفسير.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم ، التفسير المأثور، التفسير المقارن

---

١ – جامعة وارث الأنبياء عليه السلام.

Abstract

The research deals with the topic of comparative traditional interpretation. It begins by defining this type of interpretation and clarifying its preliminaries, which include the existence of a considerable number of traditional interpretations from both Sunni and Shia scholars, but these interpretations are not comparative or comprehensive. Therefore, some authors and scholars have been active in the last century in compiling a comparative interpretation that includes the traditional interpretations of more than one sect. The most important results of this activity were two interpretations: one for Sunni scholars and another for Shia scholars. Both interpretations are comparative, but the comparison in Sunni interpretation is limited to the traditional interpretations of Sunni sects only, while Shia comparative interpretation overcomes this major shortcoming that Sunni interpretation suffers from. Then we provided a model for the intended comparative traditional interpretation, which is an interpretation of Surah Al-Kafirun. Finally, we presented the results of the research with some suggestions, hoping to succeed in conveying the idea of such an interpretation.

Keywords: Holy Quran, Traditional Interpretation, Comparative Interpretation

المقدمة

خرط المشهود في أغلب التفاسير التي أثرناها عن علمائنا وكذا التفاسير المعاصرة أنّها تعكس وجهة نظر الطائفة التي ينتمي إليها المفسر، وقلّما نجد مَن فسّر بنحو مقارن أي أوجد حالة التناظر بين رؤى وآراء الطوائف والمذاهب المختلفة.

هناك بعض المساعي لأجل التجاوز عن هذه النقطة المهمة، لكن لا تخلو من عيوب، أوردناها في محلها هنا.

ما جئنا به هو أنموذج لما يمكن أن يتحقق من خلال مشروع التفسير الأثري المقارن.

وفي هذا المضمار فسرنا سورة الكافرون، لتكون انموذجاً للتفسير الذي نتوخاه.

قد يقال انّا اخترنا آية لم يكثر الاختلاف فيها وغير ذات طابع اعتقادي أو طائفي؟ في الحقيقة لا يفرق سواء اخترنا موضوعاً مختلفاً فيه اعتقادياً أو غير مختلف، والمهم هو بيان الرؤى والروايات الواردة في هذا المجال مع غض النظر عن وجود اختلاف أو عدم وجوده، فإنّ مجرد وجوده لا يوجد مشكلة ولا يثير فتنة بل التوظيفات غير الموضوعية لمثل هذه الاختلافات هي التي تثير الفتنة. وهذا شأن مجمل القضايا العلمية، دينية كانت أو غير دينية.

ولا شك في أهمية هكذا تفسير لما له من دور يمكن أن يلعبه في ايجاد موسوعة تفسيرية بالمأثور تساعد على احتواء التفاسير المأثورة وخلق مرجع لهذا العلم من جهة، وإيجاد تفاهم بين المذاهب وأتباعها من جهة أخرى.

١ – التفسير الأثري المقارن

تمهيد

التفسير لغة واصطلاحاً

التفسير واضح من البيان وكشف الغموض عن النص، وهو ما أكده مجمل علماء اللغة وكذلك المفسرون.[٢]

الأثري، هو منهج من مناهج التفسير، بل أول منهج تفسير ويعد أم المناهج التفسيرية الأخرى، كون باقي المناهج أخذت واستلهمت منه، ويعتمد في الأساس النصوص التي وصلتنا من السلف من الرسول وأهل البيت والصحابة.[٣]

وفي توضيح هذا نقول: يمكن أن نأتي بالروايات المأثورة عن كل من الطرفين من كتب التفسير مثل البرهان للسيد هاشم البحراني الذي نقل في تفسيره الأثري الكثير من الروايات التفسيرية الواردة عن الشيعة، أو تفسير الرازي الذي نقل كثيراً من الروايات التفسيرية الواردة عن طريق أهل السنة. كما يمكن الإتيان بالروايات التفسيرية من مصادرها أي الجوامع الحديثية، مثلاً الكتب الأربعة للشيعة والصحاح لأهل السنة، التي تعد المصادر الأولية لها.

ولكل من الطريقيتن فوائد، منها: أنّ اعتماد الكتب التفسيرية تغني عن البحث الوافر في مصادر الحديث في جوامعه، لكن ممّا ينقد عليه أنّ هذا قد يفقد الباحث بعض الروايات التي غفل عنها مثل الرازي أو البحراني أو أنّهما لم يحصلا على الروايات المذكورة.

طبعاً التفسير الأثري لا يعني الاستغناء عن اضافة تعليق أو تحليل أو شرح مبسط، بل قد يكون هذا ضرورياً أحياناً لبيان معنى الآية والمراد منها وتبسيط تصوّر مراد الآية.

والمراد من المقارنة في التفسير هو التناظر والإتيان بآراء وأفكار وتفاسير أو روايات طرفين أو أكثر وقرن بعضها إلى الآخر وذلك لمعرفة وجوه الاشتراك والاختلاف بعد ما تخضع النصوص المرادة إلى التحليل

٢- انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (فسر)، معرفة، محمد هادي، قالتفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، ج١، ص١٨.

٣- الاصفهاني، محمد علي، مناهج التفسير واتجاهاته، ص ٩١ – ١٠٦، الرومي، فهد، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، ص٨٦ – ٩١.

والدراسة. وهو منهج معتمد في الدراسات الأكاديمية بل يعدّ من التوجهات الحديثة في دراسة مواضيع البحوث.(٤)

المقارنة منهج دارج استعماله في كثير من البحوث، بل الأكاديميات المعاصرة تدعو إلى استخدام مثل هذا المنهج؛ لكونه يعالج بعض المشاكل المعرفية ويسد الفراغات في مجالاتها، بل يعالج الكثير من المشاكل الاجتماعية التي نعاني منها أحياناً في العالم الإسلامي.

في إيضاح هذا الصنف من المنهج التفسيري (المقارن) نقول: يمكن أن يكون التفسير المقارن المراد تدوينه أثرياً أي يعتمد المنهج الأثري من الروايات والأقوال المأثورة، ويمكن أن يكون اجتهادياً أي يعتمد الرأي والاجتهاد في التفسير أو يعتمد أي منهج آخر، ويمكن أن يكون شاملاً. فالتفسير المقارن ليس بالضرورة أن يكون أثرياً، ولذلك يمكن تقسيم التفسير المقارن إلى ما يعتمد منهج التفسير بالأثر وإلى ما يعتمد مناهج أخرى تضم إلى المقارنة.

ونحن هنا اخترنا نمط الاستفادة من نمط استخدام الروايات الواردة في التفاسير؛ وذلك لأجل بيان نموذج بسيط للطرح هنا ولا نقصد طرحاً نموذجياً ينبغي العمل وفقه في المشروع الأصلي. فلسنا هنا بصدد تدوين تفسير لسورة الكافرون مع لحاظ جميع الجوانب العلمية والفنية التي ينبغي لحاظها في الموسوعة، بل بصدد بيان نموذج فحسب.

كما أنّ اختيار سورة صغيرة كان من هذا المنطلق، فلم نختر سورة تفاسيرها كثيرة الجدل والنقاشات؛ لأنّ ذلك قد يخرجنا عن هدف هذا البحث. الذي هو تأسيس لمشروع ودعوة لإنجازه خدمة للعلم والدين والمجتمع الإسلامي.

فوائد التفسير الأثري المقارن

يمكن تصوّر الكثير من الفوائد لمثل هذا المنهج من التفسير، نورد هنا ما يبدو لنا من فوائد وآثار إيجابية:

١ – يعزز أو يساعد في إيجاد حالة الحوار في المجتمع المسلم؛ وذلك باعتبار أنّ المفروض بالتفسير المقارن أن يتناول آراء الطرفين أو الأطراف المقارن بينهما.

٢ – يحكي حقائق الرؤى لكل المذاهب والطوائف ويمنع من نسبة الكذب والأقاويل الكاذبة إلى بعضها الآخر؛ ومن خلال هذه المقارنة تتبيّن آراء كلا الطرفين وتتكشف الأفكار ليثبت الصحيح من الخطأ، وتتضح صحة أو سقم ما نسب إلى الأطراف من آراء كثيراً ما تكون كاذبة وعبارة عن تهم لا

٤ – للمزيد انظر: البدري، تحسين، مناهج البحث العلمي، والمنهج النقلي الحديث، ص ١٥٩ – ١٦٣.

أكثر. ووجود آراء متضاربة في مكان واحد بحدّ ذاته لا يثير الفتنة بل الذي يثيرها هو توظيف هذه الاختلافات لأغراض غير علمية ولا موضوعية.

٣ – يكون بمثابة موسوعة تضم مجمل الرؤى والأفكار والتفاسير القرآنية.

٤ – من الطبيعي أن يتقدم بداية هذا العمل دورات لتدريب الكوادر على كيفية كتابة الموسوعات. وهذا بحدّ ذاته يساعد في التنمية العلمية للمجتمع المسلم، وبخصوص أنّه سيولد خبراء في التفسير المأثور ملمين بآراء وروايات كلا الطائفتين.

٥ – التفسير المقارن قد ينفع في موارد تطرح فيها شبهات لا يمكن إجابتها بناءً على روايات طائفة أو مذهب خاص، وعلى سبيل المثال فإنّ من الشبهات المطروحة على القرآن هو عدم انسجام نصه، وعلى سبيل المثال الآية الثالثة من سورة النساء: **(وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألاّ تعولوا)** فان الاختلاف في الموضوع بين صدر الآية وعجزها يبدو واضحاً، بل قد جاء في الروايات الواردة عن طرق الشيعة أنّ ثلثي القرآن قد حذف كان وسط هذه الآية، ويبدو ذلك بسبب عدم القدرة لإيجاد علاقة بين الموضوعين المطروحين في الآية. لكن بناء على ما ورد في روايات أهل السنة يبدو هناك علاقة بين طرفي الآية ولا تنافي بين الصدر والعجز.[٥]

التفاسير الأثرية الشاملة

هناك تفاسير أثرية غير قليلة وردت عن أهل السنة وهي مثل التفاسير الآتية:

١ – الدر المنثور لجلال الدين السيوطي.

٢ – تفسير ابن المنذر.

٣ – تفسير ابن أبي حاتم.

وبنسبة أقل هناك تفاسير بالمأثور لدى الشيعة كذلك مثل:

١ – البرهان للسيد هاشم البحراني.

٢ – نور الثقلين للشيخ عبد علي الحويزي.

لكن أهمّ تفسيرين شاملين بالمأثور أو يدّعى بأنهما شاملان هما ما يلي:

٥- انظر: البدري، تحسين انسجام النص القرآني، ص ١٩٦ – ٢٠٣.

١ – موسوعة التفسير المأثور

عكف بعض من مؤلفي أهل السنة المعاصرين وبمساعي نخبة من العلماء والمحققين لتدوين تفسير شامل بالمأثور فكانت نتيجته (موسوعة التفسير المأثور) طبع من قبل دار ابن حزم عام ٢٠١٧ ويمكن وصفه باختصار بما يلي:

أولاً: يعتمد في الأساس كمنهج للتفسير كتاب (الدر المأثور) لجلال الدين السيوطي.

ثانياً: أضيف إلى هذا التفسير المئات من الكتب التي تضمّ روايات وآثار السلف لتفسير القرآن والتي لم يستطع السيوطي ضمها إلى تفسيره، لعدم وصولها إليه أو لشيء آخر.

ثالثاً: كونه مقارناً بين مجمل الطوائف السنية دون الشيعية منها.

رابعاً: خرجت أحاديثه وضبطت، بحيث قلّت نسبة الخطأ فيه إلى أقل ما يمكن.

خامساً: كونه عملاً جماعياً خضع لمختلف المصافي العلمية في كل مراحله.

سادساً: يتكوّن من ٢٤ مجلداً، وهي كمية غير قليلة من الآثار الواردة عن السلف في التفسير. كما أضيف إليها عام ٢٠٢٢م (المستدرك على موسوعة التفسير المأثور) ليكون عدد المجلدات ٢٥ مجلداً، ضم المستدرك مجموع المصادر التي نشرت بعد نشر الموسوعة وكذلك المصادر التي غفل عنها المؤلفون أثناء تدوين الموسوعة.

وما يمكن ملاحظته عليه – برغم كونه عملاً جباراً وجديراً بالاهتمام – أنّه نسي أو تناسى مذاهب تفسيرية مهمة مثل تفاسير الشيعة الأثرية. فكان بالامكان إضافة تفاسير الشيعة، وهي في الحقيقة تغني هذا التفسير برغم أنّها قد تختلف بعض الشيء. فهو في النتيجة غير شامل ولو نسبياً.

٢ – التفسير الأثري الجامع

وهو تفسير بدأه العلامة محمد هادي معرفة من علماء الشيعة وبعد وفاته استمر العمل عليه بواسطة مجموعة من العلماء والمحققين. نشرته مؤسسة التمهيد في قم، ولم يحدد سنة الطبع لكنّه بعد عام ٢٠٠٤م، باعتبار أن هذا التاريخ مثبت في مقدمة الكتاب. ويمكن توصيفه اختصاراً بما يأتي:

أولاً: كونه مقارناً بين المأثور عن أهل السنة والمأثور عن الشيعة.

ثانياً: اعتمد في بيان آراء وآثار أهل السنة كتباً مثل (الدر المنثور) وتفاسير سنية أخرى بمستوى أخرى.

ثالثاً: اعتمد العمل الجماعي وخضع لمصافي علمية وفنية كثيرة قللت من نسبة الأخطاء العلمية والفنية فيه كثيراً.

رابعاً: لم يكتمل هذا التفسير وما زال العمل جار عليه.

وما يمكن ملاحظته عليه عدة أمور:

١ – أنّه اعتمد في نقل آثار أهل السنة كتاب (الدر المنثور) وبعض الكتب القليلة الأخرى، وهي كتب لا تفي بكل التفسير الأثري المنقول عن أهل السنة. مع العلم أنّ هذا الأمر هو الذي دفع بهم لأن يدوّنوا موسوعة يثرون بها (الدر المنثور) بمئات المصادر الأخرى.

٢ – كان بإمكانهم اعتماد مصادر الحديث وجوامعها بدلاً عن الدر المنثور، مثل الصحاح والمسانيد؛ لأنّ النص إذا نال شيئاً من التفسير والتحليل قد لا يخلو عن التحيّز. مضافاً إلى أنّ مثل (الدر المنثور) يعدّ مصدراً ثانوياً بالنسبة إلى الآثار المنقولة.

٣ – لا يمكن عدّه شاملاً وجامعاً لآراء السلف وما ورد عنهم من تفاسير، فهو في النهاية لا يخلو عن ضيق دائرة المشمولين.

٢ – تفسير سورة الكافرون[٦]

(قُل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين)

قراءات السورة

قرأ أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود: **(قل للذين كفروا)** بدلاً عن **(قل يا أيها الكافرون)**.

ورقّق البعض الراء في الكافرون.

وقرأ البعض عابد بالضم وإضافتها إلى ما بينما المثبتة في القرآن كونها منونة.

وقرأت **(لي)** بفتح الياء وبسكونها.

وقرأ البعض ــ منهم نصر بن عاصم ــ ديني بدلاً عن **(دين)** في حالة الوقف والوصل، وفرّق البعض بين حالة الوصل والوقف، فأثبت الياء في حالة الوصل الحسن.

أمال البعض في قراءة **(عابدون)** في كلا الآيتين وكذلك **(عابد)**.[٧]

عدد آيات السورة وكلماتها وحروفها

يبدو اتفاق جميع المفسرين على كون آياتها ست، ولا نرى خلافاً في هذا المجال.[٨]

---

٦ – اخترنا هذه السورة لعدّة أسباب مثل الصغر وسهولة تفسيرها؛ لغرض إيصال فكرة هكذا تفسير دون الدخول في مواضيع جانبية، كما أنّا أدخلنا تحاليل وتعاليق بعض المفسرين لأجل إيصال فكرة أنّ سرد الآثار والأحاديث في التفسير لا يغني أحياناً عن بعض التحليل.

٧ – الخطيب، عبد اللطيف، معجم القراءات، ج١٠، ص٦١٧ – ٦١٩، وانظر: البغوي، الحسين بن مسعود، تفسير البغوي، ج٤، ص٥٣٥.

٨ – انظر: الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان، ج١٠، ص٤١٩.

أمّا عدد كلماتها فقد عدّها أبو عمرو الداني والثعلبي بست وعشرين كلمة، وعدّت حروفها بأربعة وتسعين حرفاً. (٩)

تسمية السورة ووجهها

سميت هذه السورة بالكافرون، وهو الاسم الدارج والمشهور والمدون في الكتاب، لكن لها أسماء أخرى، وهي: الجحد، والعبادة، والمقشقشة والإخلاص والمنابذة.

ومع غضّ النظر عن كون تعدّد التسمية يكشف عن عدم تعبدية التسمية فإنّ وجه التسمية المثبت في القرآن واضح من حيث إنّها وردت في الكافرين، وهم شأن نزولها.

وتسميتها بالجحد من حيث انّ الجحد هو أحد صفات الكافرين.

ووجه التسمية بالعبادة أنّها تضمّنت موضوع العبادة.

والتسمية بالمقشقشة التي تعني البراءة من الكفر والشرك؛ باعتبار تضمنها لهذا المعنى.

وتسميتها بالإخلاص؛ باعتبار أنّها تشير إلى إخلاص الرسول في عبادته. (١٠)

وأتصور أنّ تسميتها بالمنابذة باعتبار مضمونها الذي يحكي نوع نبذ الرسول للكافرين وكذلك العكس.

فضل السورة

وردت روايات عن طرق أهل السنة تؤكد عدة فضائل مثل:

"براءة من الشرك" و "تعدل بربع القرآن" وفيها كذلك الدعوة إلى الإكثار من قراءتها.(١١)

كما ورد عن الشيعة الفضائل الآتية في تفسير البرهان للبحراني:

١ – عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: "من قرأ هذه السورة أعطاه الله تعالى من الأجر كأنّما قرأ رُبع القرآن وتباعدت عنه مؤذية الشيطان، ونجّاه الله تعالى من فزع يوم القيامة، ومن قرأها عند منامه لم يتعرض إليه شيء في منامه، فعلموها صبيانكم عند النوم، ومن قرأها عند طلوع الشمس مرات، ودعا بما أراد من الدنيا والآخر استجاب الله له ما لم يكن معصية يفعلها".

٢ – قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): "من قرأها تباعدت عنه مؤذية الشيطان، ونجّاه الله من فزع يوم القيامة، ومن قرأها عند النوم لم يعرض له شيء في منامه وكان محروساً، فعّلموها أولادكم، ومن قرأها عند طلوع الشمس عشر مرات، ودعا الله، استجاب له ما لم يكن في معصية".

٩– الداني، أبو عمرو، البيان في عدّ آي القرآن، ص٢٩٣، ابن عاشور، محمد، تفسير الثعلبي، ج١٠، ص٣١٤.

١٠– انظر: السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور، ج٦، ص٤٠٤، الرازي، فخر الدين، تفسير الرازي، ج٣٢، ص١٣٦، الآلوسي، محمود، روح المعاني، ج٣٠، ص٢٤٩.

١١– بن سلام، أبي عبيد، فضائل القرآن، ص ١٤١ – ١٤٢، وانظر: الحاكم النسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج٢، ص٥٣٨.

٣ – عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: "كان أبي(عليه السلام) يقول (**قل هو الله أحد**) ثلث القرآن، و (**قل يا أيها الكافرون**) ربع القرآن".

٤ – عن أبي عبد الله(عليه السلام) أنّه قال: "من قرأ إذا أوى إلى فراشه (**قل يا أيها الكافرون**) **و** (**قل هو الله أحد**) كتب الله عزّ وجل له براءة من الشرك".

٥ – عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: " من قرأ (**قل يا أيها الكافرون**) و (**قل هو الله أحد**) في فريضة من الفرائض غفر له ولوالديه وما ولد، وإن كان شقياً مُحي من ديوان الأشقياء، وأثبت في ديوان السعداء، وأحياه الله تعالى سعيداً، وأماته شهيداً، وبعثه شهيداً"

٦ – عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال"كان أبي يقول: (**قل يا أيها الكافرون**) رُبع القرآن، وكان إذا فرغ منها قال: أعبد الله وحده".

٧ – عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: "إذا قلت: (**لا أعبد ما تعبدون**) فقل: ولكنّي أعبد الله مُخلصاً له ديني، فاذا فرغت منها، فقل: ديني الإسلام ثلاث مرات".

٨ – عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: "إذا قلت: (**قل يا أيها الكافرون**) فقل: يا أيها الكافرون، وإذا قلت: (**لا أعبد ما تعبدون**) فقل: أعبد الله وحده، وإذا قلت: (**لكم دينكم ولي دين**) فقل: ربّي الله، وديني الإسلام".[١٢]

تبرير لكون السورة ربع القرآن

في تبرير علة كونها ربع القرآن يقول الرازي: انّ القرآن يشتمل على الأمر بالمأمورات والنهي عن المنهيات، وكل واحدة منها ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وما يتعلق بالجوارح، وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب، فتكون ربع القرآن.[١٣]

محل نزول السورة

اختلف المفسرون في عدّ هذه السورة مكية أو مدنية، فورد عن أبن عباس أنّها مكية، ونسب هذا القول الى ابن مسعود والحسن وعكرمة، وهو رأي جمهور المفسرين كذلك. بينما قال الضحاك: إنّها مدنية، وروي هذا عن قتادة، ونسب هذا القول إلى ابن عباس في أحد قوليه. وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير أنّها مدنية.[١٤]

١٢- البحراني، هاشم، البرهان، ج٥، ص٧٧٩ – ٧٨٠.

١٣ – انظر: الرازي، فخر الدين، تفسير الرازي، ج٣٢، ص١٣٦.

١٤ – انظر: السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور، ج٦، ص٤٠٤، الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، ج٥، ٥٠٥، ابن الجوزي، زاد المسير، ج٨، ص٣٢٢.

لكن هناك شواهد تدعونا لدرجها ضمن السور المكية لا المدنية:

الأول: موضوعها، وهو خطاب موجه للرسول بأن يقول للكافرين المحتوى المذكور في السورة. وهو موضوع ينسجم مع خطابات القرآن الواردة في مكة التي تدعو الرسول لمداراتهم، ولا ينسجم مع خطاب ينبغي صدوره من رئيس حكومة قوية في المدينة ذات قوام سياسي وعسكري يخافه الكافرون، وبخاصة أنّ عبارة **(لكم دينكم ولي دين)** فانّ المداراة فيها واضحة، وبخاصة إذا قلنا أنّها منسوخة بالآيات التي فرضت قتال الكافرين ومحاربتهم.

الثاني: حجم السورة، فهو حجم صغير، والغالب في السور الصغير وبخاصة ذات الآيات الصغيرة نزولها في مكة، وذلك لأجل أنّ المسلمين كانوا يهتمون بأمور أخرى، وما كانت الظروف تسمح لهم للاهتمام بحفظ آيات طوال، فكان من حكمة الله أن ينزل آيات صغار يسهل حفظها؛ سعياً منه تعالى أن لا تندرس أو تُنسى من قبل المسلمين.

الثالث: ورد في شأن نزول هذه السورة أنّ الكافرين عرضوا عليه المال ليكون أغنى رجل في مكة. كما سيأتي لاحقاً. وهذا يعني أنّ موضوع السورة والحديث في هذا المجال دار في مكة؛ باعتبار أنّ موضوعا مثل هذا العرض من المحتمل قوياً تمّ في مكة لا المدينة.

شأن نزول السورة

وردت الروايات الآتية في شأن نزول هذه السورة:

عن طرق أهل السنة:

١ – عن ابن عباس أنّ قريشاً دعت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل في مكة ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد وتكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء، فان لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة، قال: "حتى أنظر ما يأتيني من ربي" فأنزل الله: **(قل يا أيّها الكافرون)** إلى آخر السورة، وأنزل: **(قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون)**.[١٥]

٢ – عن وهب قال: قالت كفار قريش للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم): انّ سرّك أن تتبعنا عاماً ونرجع إلى دينك عاماً فأنزل الله: **(قل يا أيّها الكافرون)** إلى آخر السورة.[١٦]

١٥- الزمر: ٦٤.

١٦ – السيوطي، جلال الدين، لباب النقول، ص٣٧٣.

٣ – انّ عتبة بن ربيعة وأمية بن خلف لقيا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقالا: يا محمد لا ندعك حتّى تتبع ديننا ونتبع دين:، فإن كان أمرنا رشداً كنت قد أخذت بحظك منه، وان كان أمرك رشداً كنا قد أخذنا بحظنا منه، فنزلت هذه السورة.[١٧]

عن طرق الشيعة:

عن أبي عبد الله(عليه السلام): "كان سبب نزولها وتكرارها أنّ قريشاً قالت لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): تعبُد آلهتنا سنة، ونعبُد إلهك سنة، وتعبُد آلهتنا سنة، ونعبُد إلهك سنة، فأجابهم الله بمثل ما قالوا..." [١٨]

بيان السورة

تضمّنت السورة في الإجمال أمر الله تعالى رسوله أن يرفض اقتراح الكافرين في المساومة على عبادة آلهة الكافرين، ويؤكد لهم براءته من عبادة الأصنام، وعدم قبوله لعبادتها بأي الأنحاء، ويقطع أملهم عن الرسول في الهدنة في هذا المجال إلى الأبد.

(قل يا أيّها الكافرون) يرى البعض مثل العلامة الطباطبائي أنّ اللام في الكافرين هنا لام عهد، والظاهر أنّ المراد منهم أناس محددون.[١٩] ويؤيد هذا ما ورد عن أهل السنة في شأن نزول السورة، فقد حددت الروايات أشخاصاً معينين، مثل عتبة بن ربيعة وأمية بن خلف،[٢٠] رغم أنّ بعضها أطلقت واستخدمت عبارة قريش أو كفار قريش.[٢١]

وفي فائدة ذكر **(قل)** في هذه السورة يرى البعض أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) كان مأموراً بالرفق واللين في جميع الأمور، ومخاطبة الناس بالوجه الأحسن، فلمّا كان الخطاب هنا غليظاً أراد الله رفع الحرج عنه وأنّه مأمور من قبل إلهه ولم يأت الأمر من نفسه. [٢٢]

(لا أعبد ما تعبدون...) إلى آخر السورة مقول القول، أي ما أمر الله نبيّه بأن يقوله للكافرين، والمراد ممّا يعبدون هو الأصنام، والقرينة المعنوية واضحة في هذا المجال فانّ عبادتهم كانت للأصنام، والقرينة المعنوية واضحة في هذا المجال، فانّ عبادتهم كانت للأصنام لا شيء آخر، ومفعول **(تعبدون)** هو الضمير الراجع إلى الموصول، وهو الأصنام المحذوف والمقدّر؛ باعتبار دلالة القرينة المعنوية عليه. وكذا حال أفعال العبادة الواردة في السورة والتي نفاها رسول الله، فانّ مفعولها هو الأصنام.

---

١٧ – ابن الجوزي، زاد المسير، ج٨، ص٣٢٢.

١٨ – البحراني، هاشم، البرهان، ج٥، ص٧٨١.

١٩– الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ج٢٠، ص٤٣٢.

٢٠– ابن الجوزي، زاد المسير، ج٨، ص٣٢٢.

٢١– السيوطي، جلال الدين، لباب النقول، ص٣٧٣، البحراني، هاشم، البرهان، ج٥، ص٧٨١.

٢٢– الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، ج٣٠، ص٤٤١.

وهذا التفسير مبني على أنّ **(ما)** في **(ما عبدتم)** و **(ما أعبد)** موصولة، حيث ذهب إلى مثل العلامة الطباطبائي[٢٣] لكن بعضاً آخر يرى أنّها هنا مصدرية، وعندئذ تفيد الأولى معنى عبادتكم، والثاني تفيد معنى عبادتي.[٢٤]

(ولا أنتم عابدون ما أعبد) كان بالإمكان قول (وما أنتم...) لكن يبدو أنّ النفي هنا بلا كان لأجل إيجاد التطابق بين أوائل الآيات، ليثبت وجهاً آخر من جماليات العبارات القرآنية.

(لكم دينكم ولي دين) يبدو أنّها تأكيد لما تقدّم من نفي الاشتراك في العبادة والمعبود وعدم المساومة في الديانة، فانّ لكلٍّ ديناً ليس هو الذي للآخر، واللام في الموردين للاختصاص، أي اختصاص كلٍ بدين وعدم تجاوزه إلى الآخر.

وهناك احتمال آخر في تفسير هذه الآية، وهو أنّ كلاً مباح في اتخاذ دينه، ولا يتعدّى أحد على الآخر، ولا يتعرّض أحد للآخر، ومنذ أن نزلت هذه الآية أصبحت الديانة الأخرى غير الاسلام مباحة يمكن للمشركين الاستمرار باعتناقها دون أن يتعرض لهم النبي بأذى، ولا شأن له بهم وبديانتهم.[٢٥]

لكن هذا التفسير قد يكون مرفوضاً، باعتباره متنافياً مع أهداف الشريعة ومقاصدها، من حيث إنّ الرسالة نزلت لدعوة هؤلاء المشركين إلى الدين الحق لا لتركهم وشأنهم في عبادة الأصنام والاستمرار بسيرة كان عليها آباؤهم الجاهليون. وهذا الرد يبدو من كلمات العلامة الطباطبائي.[٢٦]

وهناك رأيان آخران في تفسير هذه الآية، نقلهما العلامة الطباطبائي دون أن ينسبهما إلى أحد، أولهما: أنّ الدين هنا بمعنى الجزاء، والآية تعني لكم جزاؤكم ولي جزائي. وثانيهما: أنّ هناك مضافاً محذوفاً، وهو (جزاء) والآية تعني عندئذ: لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني.[٢٧]

وينقل الدكتور وهبة الزحيلي قولاً آخر، وهو أنّ الدين هنا هو العبادة، ويذهب إلى أنّ المراد من الآية هنا هو التهديد، مثل قوله تعالى: **(وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون ممّا أعمل وأنا بريء ممّا تعملون)**[٢٨] أو قوله تعالى: **(لنا أعمالنا ولكم أعمالكم)**[٢٩] ولا يراد منها الرضا عن عملهم.[٣٠]

---

٢٣ – الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ج٢، ص٤٣٣.

٢٤ – نسب أبو حيان الأندلسي هذا القول إلى أبي مسلم، انظر: الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص٥٢٢.

٢٥ – الأندلسي، البحر المحيط، ج٨، ص٥٢٣.

٢٦ – الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ج٢، ص٤٣٣.

٢٧ – الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ج٢، ص٤٣٤.

٢٨ – يونس: ٤١.

٢٩ – القصص: ٥٥.

٣٠ – الزحيلي، وهبة، التفسير المنير، ج٣٠، ص٤٤٣.

بحوث جانبية

الأول: تبرير تكرار الآية

من الواضح أنّ التكرار الحاصل في الآيات هنا هو تكرار في المضمون والمفهوم وليس تكراراً في الألفاظ، وهذا جعل المفسرين يبحثون سبب التكرار؛ باعتبار رؤيتهم بوجود حكمة في كل كلمة وردت في القرآن، فوردت عدّة تبريرات عنهم، هي:

١ – التكرار منسجم مع تكرار الطلب وسياقه، أي أنّ سياق الطلب من الكافرين صدر منذ البداية مكرراً فكان الجواب مكرراً على نحو الطلب، ففي رواية عن الإمام الصادق أنّ التكرار تبعاً لسياق طلب الكافرين، حيث ورد فيها: "نعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة..."[٣١]

٢ – أنّ التكرار للتأكيد وقطع أطماع الكفار في الرسول وعبادته لآلهتهم. [٣٢]

٣ – انّ الأولى لنفي وقوع الأمر من قبل الرسول، والثانية لنفي امكان ذلك شرعاً، وقطع الإمكانية بالكامل، وذلك لأن نفي الفعل يفيد الإمكان، بينما نفي الإسم آكد. [٣٣]

٤ – أنّ الأولى لبيان زمان الحال، أي أنّ الرسول حالياً غير عابد لآلهة الكفار، والثانية لبيان المستقبل، أي أنّ الرسول سوف لا يعبد آلهتهم في المستقبل. [٣٤]

٥ – ما نسبه السيد المرتضى إلى ابن قتيبة من قوله بأنّ القرآن لم ينزل دفعة واحدة بل نزل دفعات مختلفة، وكل من الآيتين تعكس زماناً غير الزمان الذي تعكسه الأخرى، وأن بين الآيتين اختلافاً زمنياً، فقد تكرر طلب الكافرين هذا مرتين، وفي المرة الأولى نزلت الآية الأولى، وفي المرة الثانية نزلت الثانية. [٣٥]

٦ – العبادة في الجملة الأولى بمعنى الذل والخشوع، وفي الجملة الثانية بمعنى الجحود. وفي هذا المجال يذهب أبو الفتح الكراجكي إلى أنّ قول الله في الجملة الأولى: **(لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد)** يعني عدم الذل والخضوع لأصنام المشركين، كما أنّهم لا يخضعون لإله محمد. وقوله في الجملة الثانية: **(ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد)** فتعني أنّي غير جاحد لله الذي جحدتموه، ولا أنتم

٣١- البحراني، هاشم، البرهان، ج٥، ص٧٨١.

٣٢- ابن الجوزي، جمال الدين، زاد المسير، ج٨، ص٣٢٣، الأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط، ج٨، ص٥٢٢.

٣٣- ابن كثير، أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٥٨١.

٣٤ – ابن الجوزي، جمال الدين، زاد المسير، ج٨، ص٣٢٣، الثعلبي، محمد، تفسير الثعلبي، ج١٠، ص٣١٤، الطباطبائي، محمد حسين، الميزان، ج٢٠، ص٤٣٣.

٣٥ – المرتضى، علي، الأمالي، ص٨٣ – ٨٤.

جاحدون للأصنام التي أنا جاحد لها. وعليه الجملتان تضمنتا فائدتين مختلفتين، ولا يحملان على معنى واحداً. (٣٦)

الثاني: القول بنسخ الآية الأخيرة

بناء على تفسير الآية الأخيرة (**لكم دينكم ولي دين**) بالمهادنة وبأنّ لكلٍّ دينا غير الذي للآخر، ولا يتعدّى أحدهما على الآخر ولا يتعرض أحدهما للآخر، ناقش المفسرون موضوع ما إذا كانت هذه الآية منسوخة أم لا؟ فقد عدّ البعض آية السيف(٣٧) أو القتال(٣٨) ناسخة لها.(٣٩) لكنّ بعضاً آخر نفى كونها منسوخة؛ باعتبار أنّها أخبار، والأخبار لا تنسخ.(٤٠)

الخاتمة والنتائج

١ – من الضروري تأسيس تفسير أثري مقارن يجمع شتات الروايات التفسيرية الواردة عن مجمل طوائف الإسلام ومذاهبه.

٢ – التفسير المقارن لا يعني عدم إدخال أي تعليق وإثراء للتفسير بشيء من التعليق أو التحليل، بل هذا يضيفه غنى ويرفع بعض الإبهامات، ويؤهله للاستخدام من قبل غير العلماء والمحققين كذلك.

٣ – من الملاحظ اتفاق الشيعة وأهل السنة في رواياتهم على فضل السورة وأنّها تعادل ربع القرآن.

٤ – اتفقوا كذلك على فضل واستحباب قراءتها عند النوم. وهذا يؤكد صحّة صدور روايات فضلها.

٥ – الواضح في ما نقل عن السنة والشيعة في شأن النزول هو اتفاق الفريقين على شأن نزول السورة وان اختلفت الروايات في الألفاظ وبعض الجزئيات غير المهمة في الباب.

٦ – انّ أكثر الآيات المفسرة هي من هذا القبيل، ولا مجال للقول بأنّ التفسير المقارن يثير فتنة أو شيئاً من هذا القبيل. مضافاً إلى أنّ إثارة الفتنة لا علاقة له بوجود هكذا تفسير بل النصوص المثيرة موجودة سواء اجتمعت في كتاب واحد أو تفرقت والأمر يعود إلى مثيري الفتنة ونظرتهم غير الموضوعية للنصوص.

---

٣٦ – الكراجكي، أبو الفتح، كنز الفوائد، ص ٢٤١.

٣٧– يبدو أنّ هناك أكثر من آية تدعى آية السيف، مثل: الآيات ٥ و ٢٩ و ٣٦ من سورة براءة. وهي جميعها دعت إلى قتال الكفار.

٣٨– مجموعة من الآيات يطلق على واحدة منها آية القتال؛ لأنّها دعت إلى قتال الكافرين، مثل الآية ٣٩ من سورة الحج، والآيات ١٩٠ – ١٩٣ من سورة البقرة.

٣٩– الثعلبي، محمد بن عاشور، تفسير الثعلبي، ج١٠، ص٣١٧، الأندلسي، ابن عطية، المحرر الوجيز، ج٥، ص٥٣١، الأندلسي، أبو حيان، تفسير البحر المحيط، ج٨، ص٥٢٤.

٤٠– الشوكان، محمد بن علي، فتح القدير، ج٥، ص٥٠٨.

اقتراحات

١ – أن يتم تدوين هكذا تفسير من قبل مركز ولا يكون عملاً فردياً، وذلك لتقليل نسبة الأخطاء التي من المحتمل ارتكابها، وكذلك تقليص مدة العمل عليه إلى أقصر مدة ممكنة.

٢ – أن تتمّ تدوين رؤى المذاهب وتفاسيرهم من قبل أتباعهم من علمائهم ومحققيهم، ولا يكون العمل قائماً بنشاط أتباع مذهب واحد فقط، وذلك للتأكّد من صحة النقل وعدم اتهام الكتّاب بالتحيّز.

٣ – برغم أنّ اضافة بعض التحليل قد يخرج التفسير عن الحيادة ويثير حفيظة البعض ويثير مشاكل أحياناً، إلاّ أن اضافة بعضها ممّا ينبغي اضافته لما له من دور من ايضاح الصورة التفسيرة للآية. ولأجل ذلك ينبغي الاقتصار على أقل مقدار من التحليل، وهو التحليل والتعليق الخالي من الإثارات والذي يستهدف تسهيل رسم الصورة التفسيرية فقط. وهذا كله ليكون التفسير بمثابة مصرف تخزن به المأثور من التفسير لا غير. وهذا هو شأن أي موسوعة موضوعية.

٤ – هذا المقترح لا يتنافى مع استحسان تدوين تفسير مقارن شامل وضام لجميع المناهج وعدم تخصيصه بمنهج خاص، وذلك لعدّة أسباب، منها: أنّنا على هذا النحو نحتاج إلى تفاسير مقارنة عدّة، ويزيد من نفقة المؤسسة أو المؤسسات التي تبنته، ومنها أنها تحتاج إلى مدة زمن طويلة جداً، وإذا أردنا جميع التفاسير في وقت قصير استدعى ذلك توظيف عدد كبير من المحققين، وهو قد لا يكون أمراً متيسراً أو حاصلاً.

المصادر

- الآلوسي، محمود بن عبد الله الحسيني، **روح المعاني**، لا ط، لا ت.

ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، **زاد المسير**، حققه: محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله، خرّج أحاديثه: السعيد بن بسيوني زغلول، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٧ق، ١٩٨٧م.

- ابن سلام، الإمام أبو عبيد القاسم، **فضائل القرآن**، تحقيق وتعليق: وهبي سليمان غاوجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤١١ق، ١٩٩١م.
- ابن كثير، أبو الفداء ابن كثير الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٢ق، ٢٠٠١م.
- ابن عطية الأندلسي، أبو محمد عبد الحق، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣ق، ١٩٩٣م.

- أبو حيان الأندلسي، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الجياني، **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: عادل أحمد بن الموجود، الشيخ علي محمد معوض، شارك في التحقيق: زكريا عبد المجيد النوقي، أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢ ق، ٢٠٠١م.
- الأصفهاني، محمد علي، **مناهج التفسير واتجاهاته**، تعريب: قاسم البيضاني، نشر: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.
- البحراني، السيد هاشم الحسيني، **البرهان في تفسير القرآن**، تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية في مؤسسة البعثه، قم، ط١، ١٤١٤ق.
- البدري، تحسين، **انسجام النص القرآني دراسة في شبهة اضطراب النص القرآني**، نشر: المشرق للثقافة والنشر، طهران، ط١، ٢٠١٩م.
- البدري، تحسين، **مناهج البحث العلمي، والمنهج النقلي الحديث**، نشر: المشرق للثقافة والنشر، ايران، طهران، ط١، ٢٠١٨م.
- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء، **تفسير البغوي (معالم التنزيل)**، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤١٣ق.
- الثعالبي، الإمام محمد بن عاشور، **تفسير الثعلبي**، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢ق، ٢٠٠٢م.
- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، إشراف: د. عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، لا ط، لا ت.
- الخطيب، د. عبد اللطيف، **معجم القراءات القرآنية**، دار سعد الدين، دمشق، ط١، ١٤٢٢ق، ٢٠٠٢م.
- الداني، أبو عمرو، **البيان في عدّ آي القرآن**، تحقيق: غانم قدورة الحمد، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، ط١، ١٤١٤ق، ١٩٩٤م.
- الرازي (الفخر الرازي) محمد بن عمر، **التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)**، دار الكتب العلمية، طهران، لا ط، لا ت.
- الرومي، فهد بن عبد الرحمن، **أصول التفسير ومناهجه**، نشر: مكتبة التوبة، الرياض، ط٤، ١٤١٩ق.

- الزحيلي، د. وهبة، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١١ق، ١٩٩١م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **الدر المنثور**، دار المعرفة، بيروت، لا ط، لا ت.
- الشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير الجامع**، لا ط، لا ت.
- الطباطبائي، محمد حسين، **الميزان في تفسير القرآن**، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٢، ١٤٢٢ق، ٢٠٠٢م.
- الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن، **التبيان في تفسير القرآن**، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، ط١، لا ت.
- الكراجكي، أبو الفتح محمد بن علي، **كنز الفوائد**، طبعة حجرية، نشر: مكتبة المصطفي، قم، ١٣٦٩ هـ.ش.
- المرتضى، أبو القاسم علي بن الطاهر أبو أحمد الحسين، **أمالي المرتضى**، تصحيح: السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، قمن ط١، ١٤٠٣ق.
- مجموعة من المؤلفين، **المستدرك على موسوعة التفسير المأثور**، نشر: دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠٢٢م.
- مجموعة من المؤلفين، **موسوعة التفسير المأثور**، نشر: دار ابن حزم، بيروت، ط١، ٢٠١٧.
- معرفة، محمد هادي، **التفسير الأثري الجامع**، نشر: مؤسسة التمهيد، قم، ايران، ط١، لا ت.
- معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، نشر: الجامعة الرضوية، مشهد، ط٢، ١٤٢٥ق.